

التحرير والتنوير

استمطروا من قریش كل منخدع ... إن الکريم إذا خادعته انخدعا E A وفي الحديث " المؤمن غر کریم " أي من صفاته الصفح والتغاضي حتى یظن أنه غر ولذلك عقبه بکریم لدفع الغرية المؤذنة بالبله فإن الإیمان یزید الفطنة لأن أصول اعتقاده مبنية على نبذ كل ما من شأنه تضلیل الرأي وطمس البصيرة ألا ترى إلى قوله : والسعيد من وعظ بغيره مع قوله : " لا یلدغ المؤمن من جحر مرتین " وكلها تنادي على أن المؤمن لا یلیق به البله وأما معنى المؤمن غر کریم فهو أن المؤمن لما زكت نفسه عن ضمائر الشر وخطورها بباله وحمل أحوال الناس على مثل حاله فعرضت له حالة استئمان تشبه الغرية قال ذو الرمة : .

تلك الفتاة التي علقتها عرضا ... إن الحليم وذا الإسلام یختلب فاعتذر عن سرعة تعلقه بها واختلابها عقله بکرم عقله وصحة إسلامه فان كل ذلك من أسباب جودة الرأي ورقة القلب فلا عجب أن یكون سریع التأثر منها .

ومعنى صدور الخداع من جانبهم للمؤمنین طاهر وأما مخادعتهم ا[] تعالى المقتضية أن المنافقین قصدوا التمویه على ا[] تعالى مع أن ذلك لا یقصد عاقل یعلم أن ا[] مطلع على الضمائر والمقتضية أن ا[] یعاملهم بخداع وكذلك صدور الخداع من جانب المؤمنین للمنافقین كما هو مقتضى صیغة المفاعلة مع أن ذلك من مذموم الفعل لا یلیق بالمؤمنین فعله فلا یستقیم إسناده إلى ا[] ولا قصد المنافقین تعلقه بمعاملتهم ا[] كل ذلك یوجب تأویلا في معنى المفاعلة الدال علیه صیغة یخادعون أو في فاعله المقدر من الجانب الآخر وهو المفعول المصرح به .

فأما التأویل في یخادعون فعلى وجوه : أحدها أن مفعول خادع لا یلزم أن یكون مقصودا للمخادع " بالكسر " إذ قد یقصد خداع أحد فیصادف غیره كما یخادع أحد وکیل أحد في مال فیقال له أنت تخادع فلانا وفلانا تعني الوکیل وموكله فهم قصدوا خداع المؤمنین لأنهم یكذبون أن یكون الإسلام من عند ا[] فلما كانت مخادعتهم المؤمنین لأجل الدین كان خداعهم راجعا لشارع ذلك الدین وأما تأویل معنى خداع ا[] تعالى والمؤمنین إياهم فهو إغواء المؤمنین عن بوادیرهم وفتلات ألسنهم وكبوات أفعالهم وهفواتهم الدال جمیعها على نفاقهم حتى لم یزالوا یعاملونهم معاملة المؤمنین فإن ذلك لما كان من المؤمنین بإذن الرسول A حتى لقد نهى من استأذنه في أن یقتل عبد ا[] بن ابن سلول كان ذلك الصنيع بإذن ا[] فكان مرجعه إلى ا[] ونظيره قوله تعالى (إن المنافقین یخادعون ا[] وهو خادعهم) في سورة النساء كما رجع إليه خداعهم للمؤمنین وهذا تأویل في المخادعة من جانبها كل بما یلائمه .

الثاني ما ذكره صاحب الكشاف أن (يخادعون) استعارة تمثيلية تشبها للهيئة الحاصلة من معاملتهم للمؤمنين ولدين اؑ ومن معاملة اؑ إياهم في الإملاء لهم والإبقاء عليهم ومعاملة المؤمنين إياهم في إجراء أحكام المسلمين عليهم بهيئة فعل المتخادعين .

الثالث أن يكون خادع بمعنى خدع أي غير مقصود به حصول الفعل من الجانبين بل قصد المبالغة . قال ابن عطية عن الخليل : يقال خادع من واحد لأن في المخادعة مهلة كما يقال عالجت المريض لمكان المهلة قال ابن عطية كأنه يرد فاعل إلى اثنين ولا بد من حيث إن فيه مهلة ومدافعة ومماثلة فكأنه يقاوم في المعنى الذي يجيء فيه فاعل اه . وهذا يرجع إلى جعل صيغة المفاعلة مستعارة لمعنى المبالغة بتشبيه الفعل القوي بالفعل الحاصل من فاعلين على وجه التبعية ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن عامر ومن معه : يخدعون اؑ . وهذا إنما يدفع الإشكال عن إسناد صدور الخداع من اؑ والمؤمنين مع تنزيه اؑ والمؤمنين عنه ولا يدفع إشكال صدور الخداع من المنافقين .

وأما التأويل في فاعل (يخادعون) المقدر وهو المفعول أيضا فبأن يجعل المراد أنهم يخادعون رسول اؑ فالإسناد إلى اؑ تعالى إما على طريقة المجاز العقلي لأجل الملاسة بين الرسول ومرسله وإما مجاز بالحذف للمضاف فلا يكون مرادهم خداع اؑ حقيقة ويبقى أن يكون رسول اؑ مخدوعا منهم ومخادعا لهم وأما تجويز مخادعة الرسول والمؤمنين للمنافقين لأنها جزاء لهم على خداعهم فذلك غير لائق